الأصبع « العابث »

قصة بقلم عبد الهادي البكار

انا فقير .. اقيم في قرية قريبة من العاصمة ، اسمها ... دوما . ورغم اني موظف في المدينة فانا ابيت كل ليلة في غرفة صغيرة ، ارسم فيها ... واقرأ .. وآكل كجرذ قذر .. وانام في منزل ابي الذي يختصر من الدار غرفة كل سنة ، يغير بابها فيجعله الى الزقاق الترابي الذي تثير منه الاقدام العابرة غبارا كثيرة .. يؤجرها لصانع احذية او نجار او بائع قماش ، على انها دكان او حانوت . ومع اني ابدو في المدينة انيقا امام رفاقي ، هادئا رحب الصدر ، فانا فظ احيانا مع ابي الكبير صاحب الثمانين.. ومن اجل هذا ، فانا لا اعتقد ان ابي فكر يوما باجراء عملية جراحية لغرفتي الصغيرة .. ويبدو لي انه يشعر دائما بطمأنينة كبيرة لمنحي هذه العلبة .

وقد كنت في الواقع قبل اكتشاف السر،مرتاحا لهذا العطاء، قانعا القناعة الكافية من كرم ابي الشيخ ، اذا لم اكن اعرف قبل ان اتحدث اليوم مع امي ان هذه الغرفة العلبة، ودكان حسين (مصلح الماكينات) كانتا قبل ولادتي غرفة واحدة ، خلق ابي منها مكانين منفصلين بجدار ترابي هزيل ورقيق .. رقيق لدرجة انني كنت اسمع في كثير من الاحيان حديث حسين مع زبوناته الفلاحات ، يناقشهن في امر تصليح ماكيناتهن.. مما يدفعني الى فصم تيار الكهرباء عن دكانه فيضطر الى توقيف المولد الكهربائي ، وبالتالي الى اغلاق الدكان ، بعد ان ييأس من طرق بابنا فلا ارد ولا اسمح لاحد ان يرد .

احيانا ، كنت اخرج منطلقا من باب الدار كرصاصة مسدس ، منفوش الشعر ، منفجرا بغيظ وقسوة ، صائحا في وجهه بصوت ثخين وعريض ان هذه حال لا تطاق .. وان عليه ان ينتقل الى دكان آخر .. ـ وكنت اتأكد قبل ان افعل هذا من ان ابي بعيد عن القرية في سفرة صغيرة!ـ

كان حسين يقابلني دائما بهدوء وبرود وثقة في وجهه واضحة .. وكنت طموحا الى هدم هذا الجدار المنتصب كشيطان عريض، وارجاع الدكان الى العلبة .. لهذا فقد كنت لا ادع فرصة سانحة للانفجار ، تمر من غير ان انطلق من باب الدار كرصاصة مسدس .

قلت لامي :

ـ كنت اسمع احيانا ضحكات مبحوحة غريبة .. ولغطا وجلبة ... على اني لم اكن اعرف انه نذل الى هذا الحد . كنت اخال انه يخفت من صوت الحديث، تفاديا منه من انطلاقي اليه كرصاصة مسدس .

وقالت امي بحزن :

ـ يا لها من فتاة مسكينة .

قلت :

ـ الم تكن تعرف انه متزوج .. له ثلاثة اولاد ؟

قالت :

ـ على الغالب .. كانت تعرف . يا لها من غبية جميلة ..

ـ المسكينة ! ..

وفكرت : كم من الاشياء الكبيرة تحدث بجانبنا ، ونكون نحن اقرب الناس اليها لا يفصلنا عن صانعيها سوى جدار رقيق هزيل .. ومع ذلك فان هذه الاشياء .. تظل مجهولة بالنسبة الينا مدة طويلة .

لم يكن حسين رشيقا او انيقا او جميل الطالع اوصاحب لسان طلي او ذا مال كثير : رجل قذر يظهر دائما امام الناس بلباس العمل : (افرول) من القماش الرخيص بلون ازرق غامق ملطخ ببقع من الشحم الاسود ، والزيت اللزج تنبعث منها رائحة تثير في معدتك رغبة التقيؤ . وهو قصير ، بطربوش مهتريء (الطرة) ، يغطي مؤخرة رأس صغير اقرع ، تحتاج لجهد كثير لتعثر في فوديه على شعرة واحدة عنها جرثوم القرع فلم يحصدها واذا ما انزلقت بنظرك الى قدميه ، الفيت اصابعه الطويلة البارزة العقد كقضبان الكرمة قد ضمها الى بعضها قسرا ، وسخ رمادي دبق .. واضحكك كعباه العاريان المتشققا الاطراف ، المرتكزان على الارض ككرتين صغيرتين ، دون (الشاروخ) المهتريء الكعب ، حتى لكأنه ذنب سمكة بعد القلي ..

والفتاة المسكينة ... اعرفها . اذكر انها ذات لحم كثير موزع على الجسم بانسجام توازن . كنت الح يدها صدفة ، وانا خارج من الدار ، تمدها لطوية باب الدكان . كان ابيضاض البشرة يعطيني فكرة طيبة عن باقي اعضاء الجسد ، ان الكف وحدها كافية لفضح ما تخبئه الملاءة الزرقاء : كف تكاد تكون مستديرة .. باصابع ممتلئة بنعومة حتى لتفكر انها منفوخة بالهواء ، او انها من العجين الطري. واذا ما ذهبت بنظرك الى الساقين احسست بالانوثة الرائعة تصرخ من تحت (الجرابات المقششة) السميكة ، صراخا ساخنا يثير فيك كوامن كثيرة .

مرة واحدة حسدت حسين القذر على مهنته : اول يوم لمحت فيه الفتاة تدخل الدكان تحمل (ماكينة الخياطة).

لم يكن حسين يتمتع بقلب طيب .. ولكنه شبق الى حد غير طبيعي ، ولذلك فقد كان يبدو دائما يسبح في عينيه في اغوار ضبابية بعيدة باردة ... يمشي ويتحدث ويفكر ببطء مزعج ووحدة مستديمة . واذا ما شذ عن هذه الخطوط الثابتة .. اعتلى دراجته البهرجة باجراس واعلام كثيرة كعروس بدوية .. ورفع ابنه الصغيرالصامت ذا الشعر الملتف على بعضه دوائر دوائر.. فوضعه وراءه على (المنصب) وتوجه بالمقود في طريق (الراي) المعبد يروح فيه ويغدو من غير عناء ، ولا حديث مع الابن الصامت، يستنشق من الهواء بشهيق مسموع مضخم ثم لا يلبث ان يأخذ طريقه عائدا الى داره بعد دقائق لا تتجاوز العشر مقتنعا ان ما صنعه : نزهة ... واية نزهة .. فاذا ما بكى الطفل يوما او شكا ذكره حسين الاب بهذا المشوار:

ـ الم اركبك الدراجة ؟ الم اذهب بك في رحلة ايها الملعون النجس ؟

كنت اشعر بكره لهذا النموذج من الإنسان ، وحينما قصت امي علي الحكاية ، لم اشفق عليه من السجن ولكني في الواقع ، كنت حزينا على مصير الفتاة . فالناس في قريتنا فقراء ... اما الاغنياء ، فقلة ،اكثرهم من العاصمة ، جاؤوا الينا ، فاشتروا مساحات شاسعة من الارض فاستوطنوها ، لما احسوا بالحليب الثر يتدفق من ثمر اشجارها الى جيوبهم . من اجل هذا ، فالمرأة مهما تكن ، مدعوة دائما للاشتراك مع الرجل في الشغل وتوفير المال الذي تطلبه الحياة البسيطة . وحتى ما قبل عشر سنين ، لم تكن المرأة عندنا تشتغل بمهنة اخرى .. غير الارض. وكانت لها من (الفلاحة) اعمال محدودة متعارف عليها . كانت مثلا تقوم باعمال (التنكيش) او (التعشيب) او (القطف) .. اما عملية (السقي) او الحصد او (العزق) فمن اختصاص الرجال .. وحينما بدأت روائح المدينة تغزو القرية الصغيرة وشرع الطلاب بعد انهائهم دروسهم الابتدائية ، يتسلل بعضهم الى العاصمة لتلقي بقية العلم ، ومد خط حديدي بين البلدة الكبيرة .. والصغيرة ، يخطر عليه ترام باوقات منظمة .. واضيئت البيوت الترابية بمصابيح تشعل من غير كاز او زيت : بدأت المرأة عندنا تتعلم المهن السهلة اللينة .. وكان لمهنة (تطريز الاغباني) على (الماكينات) الاغراء الاكبر في نفوسهن فغدا من النادر ان تخلو دار من هدير ماكينة (سنجر) .

كانت امها من هؤلاء اللواتي شققن عصا العادة على الارض وحملن راية التقدم ... بماكينة سنجر . فقد توسطت احدى معارفها من القرويات لدى دمشقي تاجر بشراشف (الاغباني) ان يبيعها (ماكينة) يأخذ ثمنها شيئا فشيئا من اجرة التطريز ..

وكانت الفتاة صغيرة بعد ، في سن الثالثة عشرة ، حين ارسلتها امها، تحمل الماكينة الى حسين يصلح عطبا في مقبضها .

كان هذا الاقرع القذر بادىء الامر ، يسرع في استصلاحها . لم يكن يقول لهدية : (ارجعي خذيها غدا او بعد غد) . وانما كان يجتهد على استصلاح العطب والفتاة واقفة تنتظر .. على انه ما لبث ـ اذ رأى الكومتين اللحميتين المحدبتين كجوزة الهند ، تكبران في صدرها ـ ان اخذ يؤخر انجاز استصلاح العطب : يوما .. ثم يوما ونصف يوم . ثم يومين تأتيه فيهما مرتين . وحينما بدأت هدية تلتف بالملاءة السميكة ، عرفت تماما لماذا يوصيها حسين ان تأتيه في اليوم مرتين .. تتفقد(ماكينة سنجر) ...

لم يكن لها سوى اخت اصغر.. اما ابوها ، فهو من اولئك الناس الذين تحبهم اول ما تراهم ، ثم يزداد حبك لهم وشغفك بهم كلما اوغلت في معرفتهم . فهو ناعم .. متدين .. حريص على ان يصلي في المسجد صباح وظهر ومساء كل يوم.. واذا ما تكلم ،لا يكادصوته يتخطى اسنانه ، وخرجت الكلمة من فمه زحفا هينا رقيقا . واذا ما انتقى متحدث فلاح شخصا يضرب به مثلا للخلق الحسن والسلوك المتزن ، والسيرة الطيبة اختار هذا الاب المسكين . ولولا انه فقير جدا لاتفق الفلاحون جميعا على جعله هو .. (المختار) .

كان حسين اول رجل تحدثت اليه ، غير ابيها .. ولقد اعجبها منه اول الامر حين كانت صغيرة ، انه قال لها ذات مرة بغير اكتراث ، وهو يتفحص احشاء الماكينة :

ـ انت ليش حلوة ؟ يا ليت امك ولدت مثلك دزينة ..

وارضاها منه بعد سنة ان تلامس اصابعه المتسخة ، بعض كفها ، مصادفة ، وهي تناوله الماكينة الصغيرة المعطوبة .

ثم .. بدأت تسرق من صندوق امها المصفد ، قليلا من الاحمر والابيض، (تمعط) به خديها ورقبتها وكفيها ، قبل ان تذهب اليه ، حاملة بمرفقها الماكينة ذات الاحشاء المروضة . ولكنها بعد ذلكاخذتشعر بحنين وشوق لرائحة الزيت والشحم، اذ هي في الفراش، وحين اصيبت اختها بالقرع .. كانت هدية تنظف بيديها ، وبالماء الساخن الرأس المقروع... من غير تأفف ولا قرف .

لم تلاحظ الام ان ابنتها تمد يدها في غفلة عنها ، فتعبث باحشاء الالة الحديدية .. فاذا ما اشرق الصباح امرتها الام باخذها الى الطبيب المداوي .. حسين.ولكنها كانت تتذمر من هذا النوع السيء .. ماكينات سنجر .

جاءت مرة الى زوجها ، قالت :

ـ تكلفنا الماكينة كثيرا من اجور التصليح ..

ـ ماذا سنفعل ؟

ـ تعال نشتري غيرها .

ـ الله ساترها يا ام هدية ...

ـ لا يكاد يمضي يومان ، من غير ان تصاب بعطب .

ـ محل حسين قريب ... واجرة التصليح عنده هينة .

ـ اي والله ... بس .

ـ بس شو ...

ـ بس الله يفرجها علينا ... ويخلصنا من هالماكينة .

كان الزوجان يتحدثان بعد رجوع الاب من المسجد بعد صلاةالظهر . وكان النهار قائظا في سمائه كتلة ملتهبة من النار .. والاطفال فيالزقاق يركضون خلف (فرخ حنش) يتلوى على التراب الساخن ... وكانت الماكينة عند حسين مرمية في زاوية رطبة ، كجيفة باردة هادئةالاحشاء.

وكنت في غرفتي احاول عبثا ان ارسم لوحة ما ، ويترشح الي من خلف الجدار المرتفع كعفريت عريض ، تنهد خافت ، وهمس مبهم ... وجلبة خفيفة ... وظننت ان حسين ، يحاول الاغفاء على ارض الدكان الرطبة ، فلا يأتيه النوم في هذا القيظ .

قال الاب :

ـ طولت هدية يا ام هدية ..

واجابت الام وهي تحفر بطن كوساية :

ـ راح تجي .. المسكينة شو عم تتعب بهالماكينة .

وعندما نفضت ما علق (بالحفارة) من بطن الكوساية على الارض ... هدأ التنهد فجأة في الدكان ثم سمعت صوت بابها .. ثم اغلاقه ...

وظننت ان حسين ذهب لينام في بيته .

في الدقيقة الواحدة .. تحدث في العالم اشياء كثيرة متشابهة ..

✶

ذات صباح .. كنت ارتدي بزتي الانيقة ، (اليق) ربطة عنق على الطقم البني الجديد . دق الباب .. ودخلت ام الفتاة .. كانت امي السمينة تتصدق عليها احيانا ، رغم فقرنا ، بدواء (الدودة) وهو مسحوق مركب من عناصر كثيرة بينها السكر ، يذر في العيون الرمدانة ، فيشفيها ، حذقت امي صنعه ، فاشتهرت في القرية كولي او قديس .

ـ امك هون ؟

ـ فوق بالمشرقة .

ـ بدي اعزم امك على حمام العرس .. معي صابون !

ـ حمام عرس مين ؟

ـ حمام عرس بنتي هدية .. ليش مالكن دريانين ؟ بكره عرسهـــا عقبال عندك ..

ـ مبروك

وقالت بفرحة كبيرة :

ـ الله يبارك فيك يا ابني ..

وشدت المنديل تستر وجهها كله.. وذهبت تصعد الدرج بخفة ورشاقة.

*

عند اوبتي مساء ذلك اليوم ، سالت امي وهي تقلي لي بيضة بالزيت:

ـ من صاحب الحظ السعيد يا امي ؟

ـ محمد الورور .. بتعرفه ؟

ـ شاب جميل .. وقبضاي .. وآدمي ..

وفجاة اندلق من الباب شبح اسود .. وأحسست برعب شديد .

كان شعرها منفوشاكشباشيب عرانيس الذرة حين تفرش في الهواء ، ووجهها اصفر ازرق كأصبع بـ (الدوحاس) وقد انسدل المنديـــل الاسود السميك على الرقبة ، ملطخا بدموع كثيرة ، فبدا منكمشا كوجه ميت محنط ! وصاحت :

ـ هالكلب وينو .. وينو هالكلب ؟ وينو حسين ؟

وذهبت في نوبة بكاء شديد ... وهزتها امي بعنف .. صاحت بهـا بقسوة :

ـ شو صار يا ام هدية .. قولي بسرعة ..

وتمتمت الام بلهجة ثقيلة كقطار كبير ، معطل :

ـ آه يا ام عبيد .. راح شرفنا .. راح الاب .. وراحت البنت .

وثبتت بؤبؤيها في ابريق التنك ، المرمي جنب المصنع بمذلة شاردة بحزن وكآبة ..

قالت امي وهي تصلح من وضع الابريق :

ـ هدئي حالك يا ام هدية ... كل شيء بالدنيا له حل ..

ـ دخيلك يا ام عبيد شو بدي اعمل ؟ .. ما لقيته .. والله لو لقيته لمصيت دمه..

ـ طولي بالك يا ام هدية .. طولي بالك .. شو صار .. احكي لشوف ..

*

لم انم ذلك الليل ، ورغم انني لم اكن بحاجة لفصم التيار الكهربائي عن دكان حسين ، وكان الهدوء يطلي كل ما اظهره ضوء القمر الداخل كاغصان عريانة من الضوء ، عبر قضبان النافذة الشرقية من اشياءمبعثرة جنب السرير .. وعلى الطاولة .. فان النوم لم يكن له علي منسلطان.

كان يدوي في راسي مزيج من صرير صرار يأتي الي من بعيد ، ورجع الهمسات الخفيفة ، والتنهدات الرقيقة التي تترشح من خلف الجدار .

يا لهذا الشيطان العريض ، الفاصل ما بيني وبين مخبز الشهوة .

ان اشياء عظيمة وفظيعة كانت تعجن وتخبز هنا .. بجانبي انا .. لا يفصلني عنها سوى جدار رقيق .. ومع ذلك ، فقد حدثت . اليس هذا ، مدعاة للحزن والكآبة ؟

لو انني كنت انهيت شعوري بالكره لهذا الكلب الانساني الشبق ، بهدم الجدار مثلا ذات يوم .. قبل سنين .. اكان الحدث الفظيع قد تم نضجه ؟

كان الامر بيدي انا .. اذن وبطريقة ما ، كنت استطيع منع حدوثه .

ان في قلبي لخفقانا متتاليا .. كطرق عابر مستعجل ، على الباب .

*

لم يتم العرس .. ولسبب ما ، قال الناس ان زواج هدية من الشاب القبضاي .. لن يتم ..

وكان اثنان من الفلاحين ، يتحدثان في منعطف زقاق قصير ، حين مـر الاب على حماره ، في طريقه الى البرية ، وسمع بعض حديثهما ..ولكنه فهمه كله .. فخبأ وجهه بالحطة (المونسة) بنقاط سود .

كانت هدية في حقل الكرم ، تقطف العنب ، وتجمعه في السحاحير الخشبية ، مع اختها الصغيرة وكانت العناقيد العقيقية ، تترك شيئا من الحرارة ، ودموع الدبق في اكف القطافين ..

وكان الاب يهدج على حماره الاجرب ، المطرق .. في الطريـــق الترابي .. يبكي بغزارة وصمت حتى لكأن عينيه ثقبان صغيران مهترئـا الاطراف ، في صخرة كالحة ، بعد المطر .

وعندما وصل الى الحقل .. ارتفع نشيجه وهو يرفع بيده شيئا يلمع في وهج الشمس ثم يغوص به في ظهر صبية تلبس ملاءة زرقاء غامقة . ثم يسحبه فيرفعه ثانية ، فلا يلتمع بوهج الشمس وانما تتقطر منه خيوط ساخنة حمراء .. ثم يهوي به في مكان آخر عند الخاصرة .

لم ينبس احد بكلمة ، غير ان الطفلة الصغيرة صاحت وهي تلقم فمها اصابع كفها اليسرى .. ثم عقدت نوافير الدم المتفجر من امكنة كثيرة، لسانها .

وانحنى الاب ، يفرد الملاءة الزرقاء الغامقة ، الملوثة ببقع ساخنـــة حمراء ، يغطي الجسد البض يجهش كطفل عمره سنتان .

تساءلت الصغيرة بخوف :

ـ ليش جرحت هدية يا بي ؟؟

وتمتم المسكين مجهشا ، من غير ان ينظر اليها ، يقبل طرف الملاءة ، يمرغ به وجهه :

ـ قطعنا الاصبع العايبة يا بنتي الصغيرة .

وسحبها من يدها في اتجاه القرية .. وحوم زنبار يئز بجناحيه حول الكومة المغطاة بملاءة تفوح منها رائحة الدم ...

حين جاء الدرك ، والطبيب ذو النظارتين السميكتين ، الى حقل الكرم .. كانت الملاءة تسيل من تحتها خيوط من الدم المتدفق القاني لا تلبث ان تتوقف عن الجريان ، متخثرة بالتراب الحار ، ذاهبـة فـي رحلة عمودية نحو كهوف الجذور ...

دوما

عبد الهادي البكار